39 - السيدة عزَّة بنت أبي سفيان

أخت أم المؤمنين

اسمها عزَّة، والدها أبو سفيان بن حرب أحد زعماء قريش في الجاهلية، ومن أبرز أشرافها، وأختها أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان زوج رسول الله ﷺ.

فرَّت أم حبيبة بدينها إلى الحبشة مهاجرة مع زوجها عبيد الله بن جحش، حين أذن رسول الله ﷺ لأصحابه بالهجرة ليعيشوا بجوار ملكٍ لا يُظلم على أرضه أحدٌ.

واستيقظ زوجها ذات صباح ليخبرها أنه تحوَّل إلى دين النصرانية التي كان عليها قبل إسلامه لأنه رآها خيراً له من الإسلام ثم أكبَّ على شرب الخمر حتى مات.

واعتدَّت أم حبيبة ﵂ وما أن انتهت عدَّتها حتى وجدت أبرهة رسول النجاشي تستأذن عليها لتخبرها أن رسول الله ﷺ قد كتب إلى سيدها ليزوِّجه منها فقالت لها: بشَّركِ الله بخير.

وقد بعث رسول الله ﷺ عمرو بن أُميَّةَ الضمري إلى النجاشي فزوَّجه إياها، وأجرى العقد خالد بن سعيد بن العاص، وأصدقها النجاشي عن رسول الله ﷺ أربعمائة دينار، وبعثها مع شرحبيل بن حسنة، وجهَّزها من عنده، وأقام وليمة العرس، فحضرها جعفر بن أبي طالب وجميع المسلمين المهاجرين إلى الحبشة.

وحين أُخْبِرَ أبو سفيان أن صهره عبيد الله بن جحش قد تنصَّر في الحبشة ومات على ذلك استبشر بعودة ابنته أم حبيبة إليه نادمة لأنها أسلمت وهاجرت دون علمه، حتى إذا أُخبر أنها أصبحت زوجةً للنبي ﷺ وقيل له

يومئذٍ - وهو مشركٌ مُحارِبٌ رسولَ الله ﷺ: إن محمداً قد نكح ابنتك، قال: فذاك الفحل، لا يُقْدَعُ أنفه[1] [2].

وبعد عودة المهاجرين من الحبشة هاجرت أم حبيبة هجرتها الثانية إلى المدينة، ولِمَا أراد الله تعالى بأختها عزَّة من الخير نوَّر قلبها، وهداها إلى الإسلام، فأسلمت في مكة دون علم والدها أبي سفيان بن حرب، ثم هاجرت إلى المدينة، والتقت بأختها أم حبيبة رضي الله عنهما.

وفي المدينة بلغ أم حبيبة أن رسول الله ﷺ يخطب فسارعت تبحث عن الخير لأختها عزَّة فيما رواه البخاري عن الزُّهرِيِّ قَالَ: أَخْبَرَنِي عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ أَنَّ زَيْنَبَ بِنْتَ أَبِي سَلَمَةَ أَخْبَرَتْهُ أَنَّ أُمَّ حَبِيبَةَ بِنْتَ أَبِي سُفْيَانَ أَخْبَرَتْهَا أَنَّهَا قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، انْكِحْ أُخْتِي بِنْتَ أَبِي سُفْيَانَ، فَقَالَ: «**أَوَ تُحِبِّينَ ذَلِكَ؟**» فَقُلْتُ: نَعَمْ، لَسْتُ لَكَ بِمُخْلِيَةٍ، وَأَحَبُّ مَنْ شَارَكَنِي فِي خَيْرٍ أُخْتِي فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّ ذَلِكَ لا يَحِلُّ لِي**»، قُلْتُ: فَإِنَّا نُحَدَّثُ أَنَّكَ تُرِيدُ أَنْ تَنْكِحَ بِنْتَ أَبِي سَلَمَةَ قَالَ: «**بِنْتَ أُمِّ سَلَمَةَ**»، قُلْتُ: نَعَمْ فَقَالَ: «**لَوْ أَنَّهَا لَمْ تَكُنْ رَبِيبَتِي فِي حَجْرِي مَا حَلَّتْ لِي، إِنَّهَا لابْنَةُ أَخِي مِنَ الرَّضَاعَةِ، أَرْضَعَتْنِي وَأَبَا سَلَمَةَ ثُوَيْبَةُ، فَلا تَعْرِضْنَ عَلَيَّ بَنَاتِكُنَّ وَلا أَخَوَاتِكُنَّ**».

قَالَ عُرْوَةُ: وثُوَيْبَةُ مَوْلاةٌ لأَبِي لَهَبٍ عَمِّ النَّبِيِّ ﷺ، كَانَ أَبُو لَهَبٍ أَعْتَقَهَا فَأَرْضَعَتْ النَّبِيَّ ﷺ، فَلَمَّا مَاتَ أَبُو لَهَبٍ أُرِيَهُ بَعْضُ أَهْلِهِ بِشَرٍّ حِيبَةٍ، قَالَ لَهُ: مَاذَا لَقِيتَ؟ قَالَ أَبُو لَهَبٍ: لَمْ أَلْقَ بَعْدَكُمْ، غَيْرَ أَنِّي سُقِيتُ فِي هَذِهِ بِعَتَاقَتِي ثُوَيْبَةَ[3].

---

(1) أي: أنه كفءٌ كريم لا يرد.

(2) الحاكم في المستدرك (4/ 22)، والطبقات الكبرى لابن سعد (8/ 99)، وأبو عمر في الاستيعاب (4/ 1844).

(3) رواه: البخاري/ كتاب: النكاح/ باب: وأمهاتكم اللائي أرضعنكم ويحرم من الرضاع ما يحرم من النسب/ برقم: (4711).

إسلام أبيها

ولما توجَّه رسول الله ﷺ إلى مكة يوم الفتح المبين فتح مكة أذن الله لأبي سفيان بالخير العميم فأسلم، حَدَّثَ مُحَمَّدُ بْنُ عَمْرٍو الرَّازِيُّ، حَدَّثَنَا سَلَمَةُ - يَعْنِي: ابْنَ الْفَضْلِ - عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ، عَنِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَعْبَدٍ، عَنْ بَعْضِ أَهْلِهِ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: لَمَّا نَزَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَرَّ الظَّهْرَانِ قَالَ الْعَبَّاسِ: قُلْتُ: وَاللهِ لَئِنْ دَخَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَكَّةَ عَنْوَةً قَبْلَ أَنْ يَأْتُوهُ فَيَسْتَأْمِنُوهُ إِنَّهُ لَهَلاَكُ قُرَيْشٍ.

فَجَلَسْتُ عَلَى بَغْلَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقُلْتُ: لَعَلِّي أَجِدُ ذَا حَاجَةٍ يَأْتِي أَهْلَ مَكَّةَ فَيُخْبِرُهُمْ بِمَكَانِ رَسُولِ اللهِ ﷺ لِيَخْرُجُوا إِلَيْهِ فَيَسْتَأْمِنُوهُ، فَإِنِّي لأَسِيرُ إِذْ سَمِعْتُ كَلاَمَ أَبِي سُفْيَانَ وَبُدَيْلِ بْنِ وَرْقَاءَ، فَقُلْتُ: يَا أَبَا حَنْظَلَةَ، فَعَرَفَ صَوْتِي، فَقَالَ: أَبُو الْفَضْلِ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: مَا لَكَ؟ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي، قُلْتُ: هَذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَالنَّاسُ، قَالَ: فَمَا الْحِيلَةُ؟ قَالَ: أَرَى أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَوْ ظَفِرَ بِكَ لَكُنْتَ فِي الهَالِكِينَ، وَهَذِهِ بَغْلَتُهُ مَعِي فَارْكَبْ عَجُزَهَا حَتَّى نَمْضِي إِلَيْهِ، وَأَسْتَأْمِنَهُ لَكَ فَرَكِبَ خَلْفِي وَرَجَعَ صَاحِبُهُ، وَانْطَلَقَ الرَّجُلاَنِ وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ يَفْسَحُونَ لَهُمَا الطَّرِيْقَ، وَرَآهُمَا عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ ﷺ، فَقَالَ: عَدُوُّ اللهِ أَبُو سُفْيَانَ؟ الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَمْكَنَ مِنْكَ دُوْنَ عَقْدٍ وَلاَ عَهْدٍ وَحَاوَلَ الإِمْسَاكَ بِأَبِي سُفْيَانَ، وَلَكِنَّ البَغْلَةَ سَبَقَتْهُ، فَعَدَا عُمَرُ وَرَاءَهَا قَاصِداً رَسُولَ اللهِ ﷺ يُرِيْدُ أَنْ يَسْتَأْذِنَهُ فِي قَتْلِ أَبِي سُفْيَانَ.

وَدَخَلَ العَبَّاسُ وَأَبُو سُفْيَانَ عَلى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَعُمَرُ فِي إِثْرِهِمَا، فَقَالَ العَبَّاسُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي قَدْ أَجَرْتُهُ، وَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللهِ، دَعْنِي لأَضْرِبَ عُنُقَهُ، فَقَالَ العَبَّاسُ مُحْتَدّاً: مَهْلاً يَا عُمَرُ، لَوْ كَانَ مِنْ بَنِي عَدِيِّ بْنِ كَعْبٍ[1] لَمَا قُلْتَ مِثْلَ هَذَا، وَلَكِنَّكَ عَرَفْتَ أَنَّهُ مِنْ رِجَالِ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، فَقَالَ

(1) بنو عدي بن كعب: قوم عمر بن الخطاب ﷺ.

عُمَرُ: مَهْلاً يَا عَبَّاسُ، فَوَاللهِ لإِسْلامُكَ يَوْمَ أَسْلَمْتَ كَانَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ إِسْلامِ الخَطَّابِ لَوْ أَسْلَمَ، وَمَا بِي إِلاَّ أَنِّي عَرَفْتُ أَنَّ إِسْلامَكَ كَانَ أَحَبَّ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ إِسْلامِ الخَطَّابِ لَوْ أَسْلَمَ، فَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يُذْهَبَ بِهِ، وَقَالَ: اذْهَبْ بِهِ يَا عَبَّاسُ إِلَى رَحْلِكَ، فَإِذَا أَصْبَحْتَ فَأْتِنِي بِهِ، وَلَكِنَّ أَبَا سُفيَانَ لَمْ يُغْمِضِ الأَجْفَانَ، وَقَضَى اللَّيْلَ سَهْرَانَ، لأَنَّهُ يَجْهَلُ مَصِيْرَهُ.

فَلَمَّا أَصْبَحَ غَدَا بِهِ العَبَّاسُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ حَتَّى إِذَا دَخَلا عَلَيْهِ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**وَيْحَكَ يَا أَبَا سُفْيَانَ، أَلَمْ يَأْنِ لَكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّهُ لا إِلَه إِلاَّ اللهُ؟**»، قَالَ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، مَا أَحْلَمَكَ وَأَكْرَمَكَ وَأَوْصَلَكَ! لَقَدْ ظَنَنْتُ أَنَّهُ لَوْ كَانَ مَعَ اللهِ إِلَهٌ غَيْرُهُ لَمَا أَغْنَى عَنِّي شَيْئاً بَعْدُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**وَيْحَكَ يَا أَبَا سُفْيَانَ، أَلَمْ يَأْنِ لَكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنِّي رَسُولُ اللهِ؟**»، قَالَ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، مَا أَحْلَمَكَ وَأَكْرَمَكَ وَأَوْصَلَكَ! أَمَّا هَذِهِ فَفِي النَّفْسِ مِنْهَا شَيْءٌ، وَكَانَ العَبَّاسُ قَلِقاً عَلَى أَبِي سُفْيَانَ لأَنَّ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ ﷺ كَانَ يَنْتَظِرُ الإِشَارَةَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَتَّى يُطِيْحَ بِعُنُقِ أَبِي سُفْيَانَ لِذَلِكَ قَالَ لَهُ: وَيْحَكَ يَا أَبَا سُفْيَانَ، أَسْلِمْ قَبْلَ أَنْ تُضْرَبَ عُنُقَكَ، فَأَسْلَمَ، وَشَهِدَ شَهَادَةَ الحَقِّ فَقَالَ العَبَّاسُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ رَجُلٌ يُحِبُّ هَذَا الْفَخْرَ، فَاجْعَلْ لَهُ شَيْئاً قَالَ: «**نَعَمْ، مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ أَغْلَقَ عَلَيْهِ دَارَهُ فَهُوَ آمِنٌ وَمَنْ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَهُوَ آمِنٌ**» قَالَ: فَتَفَرَّقَ النَّاسُ إِلَى دُورِهِمْ وَإِلَى الْمَسْجِدِ[1].

يوم فتح مكة

وروى البخاري حَدَّثَنَا عُبَيْدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ، حَدَّثَنَا أَبُو أُسَامَةَ، عَنْ هِشَامٍ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: لَمَّا سَارَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَامَ الْفَتْحِ فَبَلَغَ ذَلِكَ قُرَيْشاً خَرَجَ

(1) رواه: أبو داود/كتاب: الخراج والإمارة والفيء/باب: ما جاء في خبر مكة/برقم: (2627).

أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ وَحَكِيمُ بْنُ حِزَامٍ وَبُدَيْلُ بْنُ وَرْقَاءَ يَلْتَمِسُونَ الْخَبَرَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَأَقْبَلُوا يَسيرُونَ حَتَّى أَتَوْا مَرَّ الظَّهْرَانِ، فَإِذَا هُمْ بِنِيرَانٍ كَأَنَّهَا نِيرَانُ عَرَفَةَ، فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: مَا هَذِهِ لَكَأَنَّهَا نِيرَانُ عَرَفَةَ؟ فَقَالَ بُدَيْلُ بْنُ وَرْقَاءَ: نِيرَانُ بَنِي عَمْرٍو، فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: عَمْرٌو أَقَلُّ مِنْ ذَلِكَ، فَرَآهُمْ نَاسٌ مِنْ حَرَسِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَأَدْرَكُوهُمْ فَأَخَذُوهُمْ فَأَتَوْا بِهِمْ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَأَسْلَمَ أَبُو سُفْيَانَ، فَلَمَّا سَارَ قَالَ لِلْعَبَّاسِ: «**احْبِسْ أَبَا سُفْيَانَ عِنْدَ حَطْمِ الْخَيْلِ حَتَّى يَنْظُرَ إِلَى الْمُسْلِمِينَ**» فَحَبَسَهُ الْعَبَّاسُ.

فَجَعَلَتْ الْقَبَائِلُ تَمُرُّ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ تَمُرُّ كَتِيبَةٌ كَتِيبَةٌ عَلَى أَبِي سُفْيَانَ فَمَرَّتْ كَتِيبَةٌ قَالَ: يَا عَبَّاسُ مَنْ هَذِهِ؟ قَالَ: هَذِهِ غِفَارُ، قَالَ: مَا لِي وَلِغِفَارَ، ثُمَّ مَرَّتْ جُهَيْنَةُ فَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ مَرَّتْ سَعْدُ بْنُ هُذَيْمٍ فَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ، وَمَرَّتْ سُلَيْمُ فَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ، حَتَّى أَقْبَلَتْ كَتِيبَةٌ لَمْ يَرَ مِثْلَهَا قَالَ: مَنْ هَذِهِ؟ قَالَ: هَؤُلاءِ الأَنْصَارُ، عَلَيْهِمْ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ مَعَهُ الرَّايَةُ، فَقَالَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ: يَا أَبَا سُفْيَانَ، الْيَوْمَ يَوْمَ الْمَلْحَمَةِ، الْيَوْمَ تُسْتَحَلُّ الْكَعْبَةُ، فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: يَا عَبَّاسُ حَبَّذَا يَوْمَ الذِّمَارِ، ثُمَّ جَاءَتْ كَتِيبَةٌ، وَهِيَ أَقَلُّ الْكَتَائِبِ، فِيهِمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ وَرَايَةُ النَّبِيِّ ﷺ مَعَ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ، فَلَمَّا مَرَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِأَبِي سُفْيَانَ قَالَ: أَلَمْ تَعْلَمْ مَا قَالَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ؟ قَالَ: «**مَا قَالَ؟**» قَالَ: كَذَا وَكَذَا فَقَالَ: «**كَذَبَ سَعْدٌ، وَلَكِنْ هَذَا يَوْمٌ يُعَظِّمُ اللهُ فِيهِ الْكَعْبَةَ، وَيَوْمٌ تُكْسَى فِيهِ الْكَعْبَةُ**».

قَالَ: وأَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ تُرْكَزَ رَايَتُهُ بِالْحَجُونِ، قَالَ عُرْوَةُ: وَأَخْبَرَنِي نَافِعُ بْنُ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ قَالَ: سَمِعْتُ الْعَبَّاسَ يَقُولُ لِلزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ: يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ، هَاهُنَا أَمَرَكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ تَرْكُزَ الرَّايَةَ؟ قَالَ: وَأَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمَئِذٍ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ ﷺ أَنْ يَدْخُلَ مِنْ أَعْلَى مَكَّةَ مِنْ كَدَاءٍ، وَدَخَلَ

النَّبِيُّ ﷺ مِنْ كُدَا، فَقُتِلَ مِنْ خَيْلِ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ ﷺ يَوْمَئِذٍ رَجُلاَنِ: حُبَيْشُ بْنُ الأَشْعَرِ، وَكُرْزُ بْنُ جابِرٍ الْفِهْرِيُّ[1].

وانقلب أبو سفيان إلى قومه قبل أن يدخل جند الله إلى مكة، وأخذ يناديهم: يا قوم، ألا إني قد أسلمت فأسلموا، إن محمداً آتيكم بما لا قِبَلَ لكم به، وصعقت هند بنت عتبة حين سمعت ما يقوله أبو سفيان زوجها، فسارعت إليه تقول له: بئس طليعة القوم أنت! يا أهل مكة، اقتلوا هذا الهائج، قُبِّح من طليعة قوم، فقال أبو سفيان: ويلكم! لا تغرنَّكم هذه بما تقول، فإنه سينزل بكم ما لا تطيقون!

ودخل الفاتح الأعظم ﷺ وأمر بإزالة الأصنام من داخل الكعبة وما حولها، وأخذ الناس يدخلون في دين الله أفواجاً، ورأت هندٌ أن قريشاً لن تقوم لها قائمة بعد اليوم فاصطحبت بعض النسوة، وانطلقن جميعاً إلى رسول الله ﷺ لمبايعته.

ولما دخلن عليه كانت هند متنقبةً، فحسرت عن وجهها، وقالت: أنا هند بنت عتبة، وقد جئت أبايعك على الإسلام، فقال لها رسول الرحمة ﷺ: «**مَرْحَباً بكِ**»، وأسلم آل أبي سفيان، والتمَّ شملهم بعزَّة وأم حبيبة، حتى جاءهم هازم اللذات، ومفرِّق الجماعات، رحمهم الله تعالى.

(1) رواه: البخاري/كتاب: المغازي/باب: أين ركز النبي ﷺ رايته يوم الفتح/برقم: (3944).